الفصل الثالث

أثر الذنوب فى محق الأرزاق

المحتـــــوى

(٣-١) - تمهيد .
(٣-٢) - معنى الذنب فى ضوء القرآن والسنة .
(٣-٣) - منشأ (مصدر) الذنوب فى ضوء القرآن والسنة .
(٣-٤) - أقسام الذنوب وأنواعها فى الفقه الإسلامى .
(٣-٥) - الكبائر من الذنوب فى ضوء القرآن والسنة .
(٣-٦) - الصغائر من الذنوب : ومتى تصبح الصغيرة كبيرة ؟
(٣-٧) - الذنوب صغيرها وكبيرها ممحقات للأرزاق ومهلكات للأمم والشعوب.
(٣-٨)- مما ورد بالقرآن الكريم عن أثر الذنوب فى محق الأرزاق وهلاك الشعوب.
(٣-٩) - مما ورد بالسنة النبوية عن أثر الذنوب فى محق الأرزاق وهلاك الشعوب .
(٣-١٠) -نماذج من قصص القرآن عن هلاك أقوام الرسل والأنبياء بسبب ذنوبهم .
(٣-١١)-نماذج من قصص القرآن عن هلاك بعض الأفراد بسبب ذنوبهم.
(٣-١٢)-استدراج أصحاب الذنوب بسعة الرزق وكثرة المال والأولاد والسلطان.
(٣-١٣)- الخاتمة .

(٣-١) - تمهيد

يرتكب العبد ذنباً عندما يقوم بعمل نهى الله ورسوله عنه ، أو عندما يقصر فى أداء فريضة أو واجب مما أمر الله به ، وللذنوب آثار سيئة على القلوب وعلى الأرزاق وهى سبب رئيسى فى هدم الأمم وهلاك الشعوب وضياع الحضارات.

والذنوب والسيئات تمحق البركة من كل شيء ، يقول العلماء إنها سبب فى محق بركة العمر وبركة الرزق ، وبركة العلم ، وبركة العمل ، وبركة الطاعة ، فلا تجد أقل بركة ممن عصى الله ورسوله ﷺ وارتكب سيئة وأحاطت به خطيئته .

وفى هذا الفصل سوف نتناول بشيء من التفصيل معنى الذنوب وأقسامها وأنواعها وكيف تنشأ (مصدرها) ، وسنعطى أدلة من الكتاب والسنة ومن أقوال الفقهاء والعلماء توضح أثر الذنوب فى محق الأرزاق الظاهرة والباطنة ، وهلاك الأمم والشعوب ، ثم نعرض نماذج مما ورد فى القرآن الكريم من قصص عن أقوام الرسل والأنبياء وكيف أن الله أهلكهم بذنوبهم ، وكذلك نتناول عرض قصص صاحب الجنتين وقارون وقوم سبأ وأصحاب الجنة وكيف أن الله عاقبهم بعصيانهم وذنوبهم بأن أهلك زروعهم وثمارهم وديارهم جزاءً بما طغوا وتكبروا وبطروا النعمة ، ويختص الجزء الأخير من هذا الفصل ببيان حكمة الله فى استدراج بعض المذنبين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(٣-٢) - معنى الذنب فى ضوء القرآن والسنة

- **معنى الذنب فى اللغة .**

- الذنب : هو الإثم الذى يأتى من مخالفة لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ ، ويرجع ذلك إلى أحد أمرين [١]:

♦ ترك المأمور به سواء كان فريضة أو واجبا أو سنة .
♦ فعل المنهى عنه سواء كان من الكبائر أو الصغائر .

والذنوب تأتى من المعاصى وجزاء ذلك السيئة .. وتتراكم الذنوب والسيئات حتى تهلك الأفراد والأمم والشعوب .

- **معنى الذنب فى القرآن الكريم .**

لقد وردت كلمة الذنب فى كثير من الآيات القرآنية بمعنى الإثم والجرم والمعصية والسيئة إما بسبب القول أو الفعل ، فقد ورد على لسان سيدنا موسى عليه السلام لربه فى القرآن الكريم : ﴿ **ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون** ﴾ (الشعراء : ١٤) ، وكان ذلك الذنب أن قتل سيدنا موسى عليه السلام رجلاً من قوم فرعون ، كما ورد فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام قول الملك : ﴿ **يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾ (يوسف : ٢٩) ، فقد أمر الملك يوسف عليه السلام بكتمان ما وقع وألاّ يُحَدِّث به أحداً ، كما قال لزوجته استغفري لذنبك الذى وقع منك وهو إرادة السوء وإلصاق الخطيئة بيوسف وهو برىء منها .

- **معنى الذنب فى السنة النبوية .**

والسنة النبوية حافلة بالعديد من الأحاديث التى توضح معنى الذنب وآثاره ، منها قوله ﷺ : " **إياكم والمعصية ، فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من**

---

[١] - ابن قيم الجوزية ، " الداء والدواء " ، مكتبة التراث الإسلامى ، مرجع سابق ، ص١٤٧

العلم ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم قيام الليل ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً كان قد هيئ له "، ثم تلى رسول الله ﷺ قول الله ﷻ : " فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم "، قد حرموا خير جنتهم بذنبهم " (أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه) ، ويقول الرسول ﷺ : **" إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه "** (رواه أحمد) .

(٣-٣) - منشأ (مصدر) الذنوب فى ضوء القرآن والسنة .

- **مصادر الذنوب .**

تنشأ الذنوب بصفة عامة من مصدرين رئيسيين :

(١)- ذنوب بفعل القلوب مثل : الكفر ، والتأله على الله بالعظمة والكبرياء والعلو ، والحقد والحسد ، والبغضاء والكراهية ، والبغى ، والنفاق والمكر السيئ ، والبدع وسوء الظن ، والأنانية ، والرياء ، وتنشأ هذه الذنوب بسبب ضعف الإيمان وسوء الأخلاق ، وكلما ضعفت قوى الخير فى القلوب ، قويت قوى الشر ، فتنشأ الذنوب .

(٢)- ذنوب بفعل الجوارح مثل : الزنا واللواط والاغتصاب ، والقذف باللسان ، والنميمة والغيبة والقتل والضرب ، والسرقة والرشوة والغش والحرابة وأكل أموال الناس بالباطل ، وعدم إيتاء الزكاة ، وشرب الخمر وما فى حكمها ، والكذب والخيانة والغدر ، والسخرية ، والاحتكار والهمز واللمز والتنابز بالألقاب ، والغلظة فى القول والغضب ، ولعب الميسر ، والإسراف والتبذير ، والبخل والشح والظلم .

- **مرض القلب سبب الذنوب .**

وتنشأ الذنوب بسبب مرض القلب ، أو موته فلا يستطيع أن يسيطر على الجوارح ، ودليل ذلك قول الرسول ﷺ : **" ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب "** (رواه البخارى ومسلم) .

ويقول ابن قيم الجوزية رحمه الله : لكل عضو من أعضاء البدن توبة[1]:

- **توبة العين** : كفها عن النظر عما حرم الله .
- **توبة السمع** : كفه عن سماع المحرم .
- **توبة اليدين** : كفهما عن تناول الحرام .
- **توبة القدمين** : كفهما عن السعى إلى الحرام .
- **توبة الفرج** : كفه عن الزنا .
- **توبة اللسان** : إمساكه عن الدعاء بمكروه أو الكذب والقذف .
- **توبة العقل** : كفه عن التفكير فى المحرم .

(٣-٤) - أقسام الذنوب وأنواعها فى ضوء الفقه الإسلامى.

يقسم أهل العلم والفقه الذنوب من حيث الحقوق إلى[2]:

- ذنوب تتعلق بحقوق الله سبحانه وتعالى، أى تتعلق بالعلاقة بين العبد وربه ، مثل إهمال العبادات والطاعات ، ويجب على العبد أن يتوب ويطلب العفو من ربه، لأن حق الله ﷻ مبنى على المسامحة، وقد وعد الله ﷻ بأن يغفر هذه الذنوب فقال تبارك وتعالى : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون** ﴾ (الزمر : ٥٣-٥٤) ، ويقول الرسول ﷺ : " **لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم** " (رواه مسلم) .

---

[1] - ابن قيم الجوزية ، " الداء والدواء " ، مكتبة التراث الإسلامى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، صفحة ١٤٧ وما بعدها

[2] - الشيخ / سيد عسكر، " آثار المعاصى والذنوب فى هلاك الأفراد والشعوب " ، دار البشير ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ص ١١

- ذنوب تتعلق بحقوق العباد ، مثل ذنوب السرقة والحرابة والقذف والقتل والزنا وشهادة الزور والبغى والربا وخيانة الأمانة والرشوة والتطفيف فى الكيل والميزان ومنع الزكاة .... ، ولقد وضع الله لها الحدود والتعزيرات وهى قائمة على المشاحّة ورد الحقوق إلى أصحابها أو الإبراء منها ، ويقع على ولى الأمر فى الدولة الإسلامية تطبيق تلك الحدود وتوقيع العقوبات بالتعزير.

وإذا مات العبد قبل أن ترد هذه الحقوق إلى أصحابها أو الإبراء منها فسوف ترد لهم يوم القيامة من حسناته ، وإذا نفدت تلك الحسنات أخذ من سيئاتهم وحطت عليه .

- ذنوب تتعلق بحقوق المجتمع مثل : ذنوب عدم إيتاء الزكاة والغش والتدليس والغرر فى الأسواق ، والبغى والفساد فى الأرض ، ومنع المعروف ، والأمر بالمنكر ، ويقع على ولى الأمر على جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، المحافظة على حقوق المجتمع ورد حقوقه المغتصبة .

ولقد وضع الله سبحانه وتعالى لها الحدود والتعزيرات لرد الحقوق المغتصبة إلى الدولة المسئولة عن المجتمع .

كما يقسم العلماء والفقهاء الذنوب من حيث درجتها إلى : كبائر وصغائر

وسوف نوضح كلاً منهما بشىء من التفصيل على النحو التالى :

(٣-٥) - الكبائر من الذنوب فى ضوء القرآن والسنة .

الكبيرة هى : مخالفة ما نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ، وأجمع على ذلك الفقهاء ومن أمثلتها : الشرك بالله ﷻ وقتل النفس والزنا والربا وأكل مال اليتيم والفرار يوم الزحف وغير ذلك على النحو الذى سوف نفصله بعد قليل ، ويقول الفقهاء أن الكبيرة هى ما كانت تتعلق بأكثر من حق : حق الله ﷻ وحق المعتدى عليه وحق المجتمع ، ولقد سبق أن أوضحنا ذلك .

ولقد وَعَدَ ﷲ تعالى أن يُكَفِّرَ الصغائر من السيئات إذا ما اجتنبت الكبائر والمحرمات[1] ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً** ﴾ (النساء : ٣١) ، وقوله ﷻ : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة** ﴾ (النجم : ٣٢) ، ويقول الرسول ﷺ : " **الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر** " (رواه مسلم والترمذى)

وهناك اختلاف بين الفقهاء حول حصر عدد الكبائر ، فمنهم من يحصرها فى السبع التى وردت فى الحديث الشريف : " **اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هن يا رسول ﷲ ؟ ، قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم ﷲ إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** " (رواه مسلم والبخارى) ويرى ابن عباس ﷺ وابن تيمية " **أنها إلى السبعين أقرب منها إلى السبع** " ، وقال بعضهم أن عدد الكبائر غير محدد ، وهناك من المعاصى من يعتبرها البعض كبيرة ويعتبرها البعض الآخر صغيرة ، ويقول صاحب كتاب الكبائر : "**الذى يتجه ويقوم عليه الدليل أن من ارتكب شيئا من عظائم الذنوب مما فيه حد فى الدنيا ، كالقتل والزنا والسرقة ، أو جاء فيه وعيد فى الآخرة من عذاب أو غضب أو تهديد أو لعن فاعله على لسان نبينا محمد ﷺ فإنه كبيرة**[2]" ، وهذا هو الرأى الأرجح .

❁ من كبائر الذنوب التى وردت بالقرآن الكريم .

لقد ذكرت بعض الكبائر فى القرآن الكريم فى العديد من الآيات منها :

- يقول ﷲ تبارك وتعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم**

[1] - محمد ابن احمد بن عثمان الذهبى ، " كتاب الكبائر " ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٨٧ ، صفحة ٨ .

[2] - المرجع السابق ، صفحة ٨ .

وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (الأنعام : ١٥١-١٥٣) .

- ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما** ﴾ (الفرقان : ٦٨- ٧٠)

- ويقول الله ﷻ : ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ (الحج : ٣٠) .

- ويقول الله جل شأنه :﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾ (المائدة: ٩٠)

- ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ (الأعراف : ٣٣) .

- ويقول الله ﷻ : ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ (البقرة : ٢٧٦) .

- ويقول الله تبارك اسمه : ﴿ **إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه إن الله غفور رحيم** ﴾ (البقرة : ١٧٣) .

- ويقول الله جل وعلا : ﴿ **ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ (الأعراف : ١٥٧) .

- ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ (المطففين : ١-٣) .

- ويقول الله ﷻ : ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور** ﴾ (لقمان : ١٣) .

- ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم** ﴾ (القلم : ١٠-١٢) .

- ويقول الله جل شأنه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾ (الأنفال : ٢٧) .

- ويقول الله العزيز الحكيم : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** ﴾ (البقرة : ١٨٨) .

هذه الآيات وغيرها توضح المحرمات التى نهى الله عنها ، ومن يرتكبها فقد ارتكب كبيرة من الكبائر وهذا بخلاف ما أمر الله به من الفروض والواجبات.

❁ من الكبائر التى وردت بالسنة النبوية الشريفة

لقد ورد بالسنة النبوية الشريفة العديد من الأحاديث النبوية التى ذكرت فيها بعض الكبائر منها :

- يقول الرسول ﷺ : " **اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** " (رواه مسلم والبخارى عن أبى هريرة) .

- ويقول الرسول ﷺ : " **ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن خمر ، وقاطع رحم ، ومصدق بالسحر** " (رواه الإمام احمد)

- ويقول الرسول ﷺ : " **خمس بخمس** " ، **قالوا يا رسول الله وما خمس بخمس ؟ قال : " ما نقض قوم العهد إلاّ سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلاّ فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت الفاحشة إلاّ فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال والميزان إلاّ منعوا النبات وأخُذوا بالسنين** ، ولا منعوا الزكاة إلاّ حبس عنهم القطر " (رواه الطبرانى) .

- ويقول الرسول ﷺ : " **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ... فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت** " (البخارى ومسلم) .

- ويقول الرسول ﷺ " **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر** " (رواه مسلم) .

- ويقول الرسول ﷺ " **من ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله** " (رواه ابن ماجة والبيهقى والطبرانى).

- ويقول رسول الله ﷺ " **أول ثلاثة يدخلون النار** " **أمير مسلط ، وذو ثروة من مال الله لا يؤدى حق الله تعالى من ماله ، وفقير فخور** " (رواه ابن خزيمة وابن حبان) .

- ويقول رسول الله ﷺ **" أربعة نفر حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ، ولا يذيقهم نعيمها : مدمن خمر ، وآكل الربا ، وآكل مال اليتيم ظلما ، والعاق لوالديه ، إلا أن يتوبوا "** (رواه الحاكم بإسناد صحيح) .
- ويقول رسول الله ﷺ **" لا يدخل الجنة قاطع رحم "** (رواه البخارى ومسلم)
- ويقول رسول الله ﷺ **" أيما راع غش رعيته فهو فى النار "** (رواه الطبرانى بإسناد صحيح) .
- ويقول رسول الله ﷺ **" ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب "** (رواه البخارى) .

✿ استنباط الكبائر مما ورد بالقرآن والسنة .

من أهم الكبائر التى وردت فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية السابقة ما يلى[1]:-

- ✿ الشرك بالله سبحانه وتعالى .
- ✿ عقوق الوالدين وهجرهما .
- ✿ قتل النفس التى حرم الله ﷻ إلا بالحق .
- ✿ أكل مال اليتيم ظلما وبهتانا .
- ✿ التطفيف فى الكيل والميزان .
- ✿ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام .
- ✿ نقض العهود والوعود والمواثيق .

---

[1] - ولقد وردت هذه الكبائر بشىء من التفصيل فى كتاب الكبائر للإمام الحافظ الذهبى وقد قال بعض الفقهاء أنها قد تصل إلى السبعين .

- الزنا واللواط وما فى حكم ذلك .
- الفواحش ما ظهر منها وما بطن .
- البغى والظلم والعدوان .
- أكل الربا بكافة صوره وأشكاله .
- الخبائث (الميتة ــ الدم ــ لحم الخنزير) .
- شهادة الزور والتدليس والغرر والجهالة والاحتكار .
- السحر والدجل وما فى حكم ذلك وتصديق الكاهن والمنجم .
- التولى يوم الزحف والخيانة .
- قذف المحصنات الغافلات المؤمنات .
- قطع الرحم وهجر الأقارب .
- السرقة والغصب وقطع الطريق .
- منع الزكاة .
- الرشوة والغلول وأكل أموال الناس بالباطل .
- الكذب واليمين الغموس .
- التكبر والتألة والتعظم على الله عز وجل .
- ترك الصلاة عمداً .
- ظلم ولى الأمر الغاش لأمته .

(٣-٦) - الصغائر من الذنوب : ومتى تصبح الصغيرة كبيرة؟

الصغيرة : هى ما نهى الله ﷻ ورسوله عنه من باب الكراهة وسد الذرائع ، أو أنها تؤدى إلى الكبيرة ، أو هى ما عدا الكبائر من الذنوب التى وردت بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على النحو السابق بيانه .

وتصبح الصغيرة كبيرة بالإصرار عليها والمواظبة على اقترافها ، يقول ابن مسعود ﷺ : " **إن المؤمن يرى ذنوبه ، كأنه فى أصل جبل ، يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا (طرده)** " (متفق عليه) ٠

وهذا يعنى أن الصغيرة فى نظر بعض الناس تكون كبيرة ، وأن الكبيرة قد تكون فى نظر بعض الناس صغيرة ، ولقد فسر هذا المعنى ، أنس بن مالك ﷺ حيث قال : " **إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات (الكبائر)**" (رواه البخارى) ٠

❁ متى تصبح الصغيرة كبيرة ؟

يقول العلماء والفقهاء ، أن الصغيرة تصبح كبيرة بما يأتى :-

- الإصرار على فعلها ٠
- المواظبة على ارتكابها ٠
- التهاون والاستهتار بها ٠
- المجاهرة بفعلها ٠
- الاقتداء بمن يفعلها ٠
- التهاون بحلم الله ﷻ ــ والتذرع بأن الله ﷻ غفور رحيم ٠

ولقد حذرنا رسول الله ﷺ من ارتكاب الصغائر ، فقال : " **إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه** " (رواه أحمد من حديث ابن مسعود) ، فعلى سبيل المثال يبدأ الرجل فى التدخين مزاحاً وتقليداً ، ثم يدمن التدخين ثم يجره هذا إلى

الحشيش والأفيون والكوكايين ... وغير ذلك من المفترات والمسكرات حتى يقع فى الخمور وهو لا يدرى ، ومثال آخر يشيع فى أوساط العامة من الناس وهو الاختلاط الذى يقود إلى النظرات السامة والأقوال الفاحشة ..... ثم إلى الزنا بالعين واللسان ..... والفرج .

ولقد حرم الإسلام الكثير من الأشياء والمعاملات من باب سد الذرائع ، وكان الصحابة يتركون تسعة أعشار الحلال خشية الوقوع فى الحرام.

(٣-٧) - الذنوب صغيرها وكبيرها ممحقات للأرزاق ومهلكات للأمم والشعوب

يجمع أهل العلم ورجال الفقه أن الذنوب صغيرها وكبيرها مما يمحق البركة من الأرزاق ، وأنها سبب رئيسى لهلاك الأمم والشعوب ومن صور ذلك ما يلى :-

- قلة المنفعة المعتبرة شرعاً من الرزق .
- نقص العمر وضياع العلم وخسران العمل .
- هلاك الرزق بالسرقة والرشوة والضياع والابتزاز .
- الابتلاء بالمصائب التى تأتى على الرزق فتهلكه وعلى الشعوب فتضيعها .
- الابتلاء بالأمراض الخبيثة التى تهلك الأبدان وتضيع الأموال .
- القلق النفسى والاضطراب العصبى وعدم السكينة والأمن .
- تقليد واتباع الفاسقين المنحرفين فيمحق الرزق ويهلك البدن .
- تسليط الأعداء لنهب الثروات .
- قلة الأمطار وحدوث الجفاف وهبوب الريح التى تهلك الحرث والنسل.

- حدوث الزلازل والأعاصير التى تدمر كل شىء .
- الابتلاء بالزوج أو الزوجة أو الأولاد الفاسقين .
- الركون إلى الذين ظلموا ، الذين يقومون بأخذ (ابتزاز) الأموال بالباطل .

وسوف نعرض فى الصفحات التالية نماذج من هذه الصور كما وردت فى القرآن الكريم فى قصص الرسل والأنبياء وما حدث لأقوامهم .

(٣-٨) - مما ورد بالقرآن الكريم عن أثر الذنوب فى محق الأرزاق وهلاك الشعوب .

لقد ورد فى كتاب الله ﷻ العديد من الآيات القرآنية التى تؤكد على أن ارتكاب الذنوب والسيئات يؤدى إلى محق البركة من الأرزاق ويكون سببا فى هلاك الشعوب ، من هذه الآيات ما يلى :

- يقول الله ﷻ : ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا، وكنا نحن الوارثين** ﴾ (القصص : ٥٨) ، ولقد ورد فى تفسير هذه الآية أن الناس عندما طغوا وأشركوا وكفروا بنعم الله ﷻ التى أنعمها عليهم من الأرزاق ، كان العقاب أن دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم أى أصبحت خرابا ليس فيها أحدا .

- ويقول الله ﷻ مبينا أثر ذنب التعامل بالربا على الرزق : ﴿ **يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم** ﴾ (البقرة : ٢٧٦) ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس ، فلا يربوا عند**

الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ (الـــروم : ٣٩) .

- يُبين الله ﷻ أثر الترف والبذخ على فساد المجتمع وهلاكه ودمـــاره ، يقـــول الله سبحانه وتعـالى : ﴿ **وإذا أردنـا أن نـهلك قريـةً أمرنـا مترفيـها ففسقوا فيـها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً** ﴾ (الإسراء: ١٦) .

- وعندما لا تلتزم الأمم والشعوب بشرع الله ﷻ وتكثر ذنوبهم ، يهلكهم ويأتى بقوم آخرين ، وفى هذا المقام يقـــول الله ﷻ : ﴿ **أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كـانوا هم أشد منـهم قوة ، وآثاراً فى الأرض ، فأخذهم الله بـذنوبهم وما كان لهم من الله من واق** ﴾ (غـافر : ٢١) ، ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **ألم يـروا كم أهلكنـا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنـهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين** ﴾ (الأنعام :٦) .

- ويبين الله ﷻ أن من أسباب الفساد فى الأرض المعاصى والذنوب والســـيئات ، فيقول ﷻ : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ (الروم : ٤١) ، ويقول صاحب الظـــلال فـــى تفسير هذه الآية :: " أن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقـــع فـــى الأرض الفساد ويملؤها براً وبحراً بهذا الفساد ، ويجعله مسيطراً على أقدارها غالباً عليـــها .. فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثاً ولا يقع مصادفة ، إنما هو تدبـــير

الله ﷻ وسنته ليذيقهم بعض الذى عملوا من الشر والفساد ، حينما يكتوون بناره ويتألمون لما يصيبهم منه فيعزمون على مقاومة الفساد ويرجعون إلى الله ﷻ وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم "[1].

- ولقد ربط الله سبحانه وتعالى بين المصائب التى تحدث للبشرية وبين ذنوب العباد ، فقال تبارك وتعالى : **﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾** (الشورى :٣٠) ، ويقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : **" أى مهما أصابكم أيها الناس من المصائب ، فإنما هى من سيئات تقدمت لكم ويعفو الله سبحانه وتعالى كثير من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها[2] .**

(٣-٩) - مما ورد بالسنة النبوية عن أثر الذنوب فى محق الأرزاق وهلاك الشعوب .

لقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة تبين أن المعاصى والذنوب والسيئات والرذائل والخطايا تمحق الرزق ، وتهلك الأمم والشعوب ، نذكر منها ما يلى :

- يقول الرسول ﷺ : **" إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه "** (رواه أحمد والنسائى) ففى هذا الحديث يوضح الرسول ﷺ أنه بسبب الذنوب يحرم الناس الرزق .

---

[1] - سيد قطب ، " فى ظلال القرآن " ، الجزء الخامس ، صفحة ٢٧٧٣ .

[2] - ابن كثير ، جـ٤ ، صفحة ١١٣ .

- يوضح الرسول ﷺ الآثار المتعددة للذنوب فيقول : " **إياكم والمعصية فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم قيام الليل ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً كان قد هيئ له ، ثم تلا الرسول ﷺ قول الله ﷻ : ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم﴾، قد حرموا خير جنتهم بذنبهم** " (أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه)

ففى هذا الحديث يوضح الرسول ﷺ أن المعاصى تسبب النسيان وتقلل التحصيل من الاستذكار والفهم ، وأنها تسبب الكسل والعجز والخمول ، فتمنع العبد من الاستيقاظ لقيام الليل ، كما أنها تحرم العبد من الرزق الذى كان قدر له بسبب الأخذ بالأسباب أوغيرها ، ويعطى الرسول ﷺ نموذج قصة أهل ضروان التى جاءت فى سورة القلم ، وسوف نعود لها تفصيلاً فيما بعد .

- وفى حديث جامع يفصل الرسول ﷺ أثر الذنوب على الأفراد والأمم والشعوب ، ففى سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ ، فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال : " **يا معشر المهاجرين خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاّ أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلاّ مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلاّ سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما فى أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلاّ جعل بأسهم بينهم** " (رواه ابن ماجه والبزار والبيهقى) .

- ففى هذا الحديث ذكر الله ﷻ من المعاصى والذنوب والسيئات الكبيرة : الفاحشة ونقص المكيال والميزان ومنع الزكاة ونقض العهود وعدم الحكم بكتاب الله ﷻ ... فهذه الذنوب تسبب هلاك الأبدان بالأمراض ، والقحط والجفاف ، وظلم الحكام ، واستيلاء الأعداء على الأموال ، والشقاق والعراك والقتال بين المسلمين وهذا حاصل واقعنا الأليم .

- ويوضح الرسول ﷺ أن من أسباب المصائب والنكبات التى تنصب على الأمم والشعوب ، الذنوب والسيئات ، فيقول " **لا تصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلاّ بذنب ، وما يعفو الله ﷻ عنه كثير** "، وقرأ الرسول ﷺ : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ (الشورى:٣٠) .

- وأحياناً يعاقب الله سبحانه وتعالى الأمة بالعذاب فى الدنيا بسبب فئة عاصية فاسقة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " **إذا ظهرت المعاصى فى أمة ، عمهم الله بعذاب من عنده فقلت يا رسول الله : أما فيهم يومئذ صالحون ؟ قال بلى ، قلت فكيف يصنع بأولئك ؟ قال : يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان** " (رواه الإمام أحمد)

(٣-١٠) - نماذج من قصص القرآن عن هلاك أقوام الرسل والأنبياء بسبب ذنوبهم[١] .

سنة الله ﷻ لا تتغير ولا تتبدل على مر الأزمنة والعصور ، ومنها أن المعاصى والذنوب والسيئات والرذائل والخطايا من أسباب الهلاك والدمار ومحق البركات من

[١] - لمزيد من التفصيل يرجع إلى كتاب قصص القرآن من تأليف محمد أحمد حماد المولى وآخرين.

الأرزاق ، والقرآن الكريم حافل بالنماذج التى تحكى لنا مصير الأقوام والشعوب التى عصت فأخذهم الله ﷻ بذنوبهم ، ولقد سبق أن عرضنا بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التى تؤكد سنة الله ﷻ فى الذين خلوا ، ولمزيد من التفصيل نعرض بعض النماذج من قصص الرسل والأنبياء منذ نوح عليه السلام وحتى محمد ﷺ لنأخذ منها العبر، ونوقن أن مصير الكافرين المشركين المتكبرين المستهزئين الظالمين العاصين المذنبين هو الهلاك والدمار ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ (هود : ١١٧) .

وفيما يلى نماذج من الأقوام الذين عاقبهم الله بسبب كفرهم وعصيانهم لأنبيائه ورسله وماذا فعل الله ﷻ بقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وقومه ؟ .

أولا : عقاب قوم نوح بالغرق بسبب كفرهم واستكبارهم واستهزائهم .

عاقب الله سبحانه وتعالى قوم نوح بالغرق ، فكانوا يعبدون الأصنام ودعاهم سيدنا نوح إلى عبادة الله ﷻ فأعرضوا ، وعموا وصموا واستكبروا ، ولم يستجب له إلا نفر قليل ، ولما رأى نوح أن كلمة الله ﷻ قد حقت عليهم ، وقضى وحيه أنه لن يؤمن أحد بعد ، وأنه طبع على قلوبهم ، ووضعت عليها الأقفال فلم يعودوا يخضعون لبرهان ، ونفد صبره ، دعا عليهم ، فاستجاب الله ﷻ دعاءه ، وأوحى إليه أن يصنع الفلك ويركب فيها ومن آمن من قومه وأهله ، ويحمل فيها من كل زوجين اثنين ... وجاء العقاب بأن أمر الله ﷻ أبواب السماء أن تفتح بالماء وتفجرت الأرض بالعيون ، وبلغ السيل الزبى ، وارتفعت الأمواج ، ونجى الله ﷻ نوحا ومن آمن معه ، وأغرق الكافرين ، بسبب عصيانهم وذنوبهم ، وصدق الله ﷻ إذ يقول : ﴿ **وقد أضلوا كثيرا ، ولا تزد الظالمين**

إلا ضلالا ، مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ (نوح : ٣٥-٣٦) .

ثانيا : عقاب قوم هود بالريح العارمة بسبب كفرهم وعصيانهم .

أرسل الله سبحانه وتعالى سيدنا هودا إلى قومه ، وهم قبيلة عاد ، وكانت تعيش بالأحقاف ما بين اليمن وعمان ، وقد أسبغ الله ﷻ عليهم نعمه ، ومنحهم بسطة فى أجسادهم ، وقوة فى أبدانهم ، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، ولكنهم عاثوا فى الأرض فسادا ، وأذل القوى الضعيف ، وبطش الكبير بالصغير ، فأرسل الله ﷻ إليهم أخاهم هودا عليه السلام ، وطلب منهم عبادة الله ﷻ وترك عبادة الأحجار التى ينحتونها ، فأعرضوا عنه ورموه بالسفه والحمق ، فأرسل الله ﷻ عليهم ريحا فيها عذاب أليم ، حملت رمال الصحراء وظلت سبع ليال وثمانية أيام متتاليات ، وأصبح القوم بعدها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وصدق الله ﷻ إذ يقول : **﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ﴾** (الحاقة :٦-٨) ونجى الله سبحانه وتعالى هودا ومن آمن معه.

ثالثا : عقاب قوم صالح بالصاعقة بسبب كفرهم وعنادهم واستكبارهم .

أرسل الله سبحانه وتعالى سيدنا صالحا عليه السلام إلى ثمود الذين ورثوا قوم عاد ، وفجر الله ﷻ لهم العيون وغرسوا الحدائق والبساتين ونحتوا من الجبال بيوتا ، وكانوا فى سعة من العيش ونعمة وترف ولكن لم يشكروا الله ﷻ ولم يحمدوا فضله ، بل زادوا فى الأرض عتوا وفسادا واستكبارا ، وعبدوا الأوثان وظنوا أن هذا النعيم خالد ... ولكن الله سبحانه وتعالى لم يمهلهم ، وأنزل بهم عقابه ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم فأصبحوا فى

ديارهم جاثمين ، ولم يمنعهم ما شادوا من قصور شامخة وما جمعوا من أموال وافرة وما غرسوا فيها من جنات واسعة ، وما نحتوا من بيوت آمنة ، فأصبحوا جثثا هامدة ، وديارا خاوية ... فكان هذا عقاب عصيانهم وكفرهم وذنوبهم وقال سيدنا صالح عليه السلام : ﴿ **يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ (الأعراف : ٧٩) ولكن لم يستجيبوا فعاقبهم الله عز وجل ، وصدق فيهم قوله تبارك وتعالى :﴿ **فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية** ﴾ (نوح :٥) .

رابعا : عقاب قوم لوط بالزلزال .

أرسل الله ﷻ سيدنا لوطا عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله ﷻ ، وينهاهم عن فعل الفاحشة (اللواط) حيث كانوا لا يتعففون عن معصية ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة وأخبثهم سريرة ، يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويتربصون لكل سار ، ويسلبون منه ماله ، وكانوا يأتون الذكران من العالمين ، وأشربت قلوبهم الفاحشة ، وأنذرهم سيدنا لوط عليه السلام سوء الفاحشة فلم يأبهوا لتحذيره ، واستخفوا بوعيده ، فسأل لوط عليه السلام ربه أن ينصره على هؤلاء القوم المفسدين الفاسقين ، ويوقع عليهم العذاب الأليم ، فاستجاب الله ﷻ دعاءه وأمره بالخروج هو وأهله من القرية ، إلا امرأته ، حتى إذا صار بعيدا عنها جاءها أمر الله ﷻ ونزل بها عذابه ، وزلزلت الأرض زلزالها ، فصار عاليها سافلها ، ثم غشيت بمطر من سجيل ، فأصبحت ديارهم خرابا ، وبيوتهم خاوية بما ظلموا ، وصدق قول الله عز وجل : ﴿ **ربِ نجنى وأهلى مما يعملون ، فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ (الشعراء ١٦٩-١٧٤) .

خامسا : عقاب قوم شعيب بالحر الشديد والزلزال العنيف بسبب الكفر والتطفيف .

أرسل الله ﷻ سيدنا شعيبا إلى أهل مدين بأرض كنعان فى الشام ، وكانوا يكفرون بالله ﷻ ويشركون به ، إذ عبدوا الأيكة (غيضة تنبت الشجر) من دون الله ، وكانوا يبخسون الناس أشياءهم ولا يوفون الكيل والميزان ، فقال لهم شعيب عليه السلام : **﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾** (الشعراء : ١٨١-١٨٣) ، فلم يستجب لدعوته إلاّ قليل ، ولما يئس منهم دعا الله ﷻ أن يجزيهم على كفرهم وجحودهم وتكذيبهم ، فاستجاب الله ﷻ دعاءه ، وابتلاهم بالحر الشديد ، ففروا هاربين وخرجوا من ديارهم مسرعين ، ثم رأوا سحابة ظنوها من وهج الشمس واقية ، وحسبوها للحر دافعة ، فاجتمعوا تحتها ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ، وأحسوا بالأرض تتزلزل من تحت أقدامهم ، ففزعوا لهول ما رأوا ، وما كادوا يحسون مه حل بهم حتى أزهقت أرواحهم وهلكت نفوسهم ، ويقول الله سبحانه وتعالى عنهم : **﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾** (الأعراف:٩١-٩٢)

سادساً : عقاب فرعون وقومه بالغرق بسبب كفرهم بدعوة موسى عليه السلام وعنادهم وطغيانهم وتألههم .

قصة سيدنا موسى مع فرعون كبيرة فيها العديد من العبر والدروس ، سوف نقطف منها ما يتعلق بموضوعنا وهو : هلاك الأمم والشعوب بسبب المعاصى والذنوب : إن فرعون تمادى وطغى وعلا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ويُذبح أبناءهم ويستحى نسائهم ، إنه كان من المفسدين ، دعاه سيدنا موسى عليه السلام إلى عبادة الله ﷻ وجاءه بالأدلة والآيات والمعجزات ، ولكنه استكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وكذبوا بلقاء الله ﷻ ... وقال له فئة من قومه : **﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ... ﴾** (الأعراف:١٢٧) ، فأمر الله ﷻ سيدنا

موسى بالخروج من مصر هو والذين آمنوا معه فخرج من مصر فاتبعه فرعون بجنوده عدواً ... فأوحى الله ﷻ إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق له طريق فى البحر يبساً فنجاه الله ﷻ وقومه إلى الشاطئ الآخر ، ثم أمر الله ﷻ موسى أن يترك البحر ساكنا على حاله ... فسلك فرعون وقومه البحر فانطبق عليهم الماء فكانوا من المغرقين ... يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ (القصص : ٤٠) .

تعقيب :

صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ (غافر : ٥١) - لقد نصر الله ﷻ الأنبياء والرسل على القوم الكافرين المشركين الفاسقين المفسدين المتكبرين المتألهين ، وفى هذا عبرة وموعظة للدعاة إلى الله ﷻ فى كل زمان ومكان ، فالنصر من عند الله العزيز الحكيم ، فلا ييأسوا أبداً فالعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين .

وبسبب المعاصى والذنوب والرذائل والخطايا والسيئات كان العقاب شديداً ، ولقد اختار الله ﷻ لكل قوم نوعاً من العذاب بما يتناسب مع عصيانهم وذنوبهم .

ولقد أمر الله ﷻ مخلوقاته من غير البشر لتكون وسيلة للعقاب : السماء ، الأرض ، الريح ، الصواعق ، الزلازل ، البحار ، وفى هذا إعجاز للبشر .. فسبحان الله الذى له جنود السماوات والأرض ، ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر** ﴾ (المدثر :٣١) .

(٣-١١)-نماذج من قصص القرآن عن هلاك بعض الأفراد بسبب ذنوبهم.

وقد ورد بالقرآن الكريم كذلك قصص عن مصير بعض الأفراد الذين ارتكبوا المعاصى والذنوب مثل قوم سبأ وأصحاب الجنة ، وصاحب الجنتين ، وقارون ، وسوف نعرضها لنستنبط منها الدروس والعبر .

أولاً : قصة قوم سبأ :عندما طغوا وكفروا بنعمة الله ، أرسل الله عليهم سيل العرم .

كان قوم سبأ فى نعمة سابغة ، فكفروا وبالغوا فى البطر ، فأرسل الله ﷻ عليهم سيل العرم فغرق الزرع ، وهلك الضرع ، ومزقوا كل ممزق ، ولقد صور الله عز وجل ذلك فقال تبارك وتعالى : ﴿ **لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا ، فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلاّ الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين** ﴾ (سبأ ١٥ــ٢٠) .

مما ورد فى قصة سبأ[1] : أن رجلاً من الصالحين كان يعيش فى اليمن رزقه الله ﷻ رزقاً طيباً مباركاً ، ومات وترك لأولاده وقومه جنات وزروعاً وثماراً ، وكانوا يعيشون فى رغد وسعادة ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويعبدوه ويشكروه ، وبعد فترة من الزمن كفروا بالنعمة ، وبالغوا فى البطر والأشرة وعاندوا الرسل والأنبياء ، وتكبروا وشغلوا بالعمران وبناء السدود وطغوا ، فعوقبوا بإرسال السيل العرم فأهلك الزروع والثمار وأتى على الجنات وهلك الضرع وتبدل ذلك إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذى الشوك الكثير والثمر القليل ، كما شردوا ومزقوا كل ممزق ، وذلك بسبب عصيانهم وكفرهم وشركهم بالله ﷻ وتكذيبهم بالحق وعدولهم عنه إلى الباطل ، كانوا فى نعمة سابغة فلم يحفظوها ، وثياب من العز صافية فلم

---

[1] - يرجع فى ذلك إلى : الصابونى " مختصر تفسير ابن كثير " ، جـ٣ ، ص١٢٥ .

يصونوها وجزاهم الله ﷻ بما كفروا ، وصدق فيهم قول الله تبارك وتعالى " **وهل نجازى إلا الكفور** "[1] (سبأ:١٧) .

ثانيا : قصة أصحاب الجنة : دبروا حرمان المساكين من الجنة فأرسل الله ﷻ عليها طائفاً فأصبحت كالصريم .

يقول الحق تبارك وتعالى عن قصة أصحاب الجنة كما وردت فى سورة القلم: " **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ، ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** " (القلم : ١٧-٣٣) .

مما ورد فى تفسير هذه الآيات أنه كان رجل طيب من أهل اليمن يعيش فى مدينة ضروان ، فيها ثمار وزروع وزهور ومياه ونخيل وأعناب ... ، وكان للمساكين حق فى ثمرها ولا يبخل به بل كان يوفيهم نصيبهم ، ثم مات الرجل الصالح ، ولقد فكر أولاده أن يستأثروا بثمرها ، وأن يحرموا المساكين من حظهم ، وقالوا لم يعد بعد اليوم حق لسائل أو فقير ولا لابن سبيل ، وتحفظ على رأيهم أوسطهم .. وقرروا أن يقطعوا

[1] - وإلى كتاب قصص القرآن تأليف محمد أحمد حاد المولى وآخرين ، ٢٨٧ وما بعدها .

ثمرها عند الصباح الباكر ، دون أن يستثنوا منه شيئا للمساكين ، وأقسموا على هذا وعقدوا النية عليه ، وباتوا على ما اعتزموه من الشر، فطاف عليها طائف من تدبير الله ﷻ فأصبحت خاوية من الثمار (مقطوعة الثمار) ، وقد صحُوا مبكرين كما دبروا ، ينادى بعضهم بعضا لينفذوا ما اعتزموا عليه ، يذكر بعضهم بعضا ويوصى بعضهم بعضا ، ويحمس بعضهم بعضا ليستحلوا الثمر كله لهم ويحرموا منه المساكين ، وعندما فوجئوا بأن الحديقة خاوية مقطوعة الثمار " قالوا ما هذه جنتنا الوافرة بالثمار؟ ، فقد ضللنا عنها الطريق ! ولكنهم يعودون فيتأكدون أن هذا هو الخبر اليقين ، والآن وقد حاقت بهم عاقبة المكر السيىء ، وعاقبة البطر والمنع ، يتقدم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم ويبدو أنه كان له رأى غير رأيهم ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد فى رأيه ، ولم يصر على الحق الذى رآه فناله الحرمان كما نالهم ، ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه وتوجيهه ، والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان ، كما يتصل كل شريك من التبعة الرديئة ويرجون أن يغفر الله ﷻ لهم ويعوضهم خيراً من الجنة الضائعة بسبب البطر والمنع والكيد وسوء التدبير .

ثالثاً : قصة صاحب الجنتين : عندما بطر النعمة ، أرسل الله على الجنتين حسباناً فأصبحتا خاويتين على عروشهما .

يقول الله تبارك وتعالى عن قصة صاحب الجنتين: **﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا ،**

قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا ، لكنا هو الله ربى ولا أُشرك بربى أحدا ، ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولدا ، فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا، أو يُصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً ، وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ، هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً ﴾ (الكهف : ٣٢-٤٤)

ورد عن ابن كثير فى تفسير هذه القصة : "ضرب الله ﷻ للمشركين المستكبرين مثلا برجلين ، جعل الله ﷻ لأحدهما جنتين من أعناب محفوفة بالنخيل ، وفى خلالهما الزروع المثمرة وكانت الأنهار متفرقة هنا وهناك ، وكان له ثمر أى مال كثير ، وكان يحاور الرجل الآخر ويفتخر عليه بالمال والخدم والحشم والولد ، وكان كافراً متمرداً متكبراً منكراً ليوم المعاد ، وظن أن هذا كله لا يفنى ولا يهلك ولا يتلف ، ويقول لئن كان هناك معاد ورجعة إلى الله ﷻ ليكونن لى أحسن من هذا الحظ عند ربى ، قال له صاحبه المؤمن أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ، لكنى لا أقول بمقولتك بل أعترف بالله ﷻ لا أشرك به أحداً ، بل يجب عليك أن تشكر الله ﷻ الذى أعطاك المال والولد ، وقال له فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك فى الآخرة ، ويرسل على جنتك التى ظننت أنها لا تفنى عذاباً من السماء (مطر مزعج) فتصبح ترابا أملساً ، أو يصبح ماؤها غائرا فى الأرض ، وحدث ذلك ، فأصبح يقلب كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التى أذهبها عليها وندم وقال: **﴿ يا ليتنى لم أُشرك بربى أحداً ... ﴾** ، بسبب بطر النعمة والشرك بالله ﷻ والكفر به والتعالى والتعاظم ، كانت العقوبة أن هلكت الجنة بما فيها وضاع ما أنفقه عليها

رابعاً : قصة قارون عندما طغى وتكبر وبغى ، خسف الله به وبداره الأرض

يقول الله تبارك وتعالى عن قصة قارون : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى ، فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علمٍ عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ، فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقاها إلاّ الصابرون ، فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾ (القصص:٧٦-٨٣) .

ولقد ورد فى قصة قارون " أنه كان من قوم موسى عليه السلام ، وقد آتاه الله ﷻ بسطة فى العيش ، وسعة فى الرزق ، وكثرة فى الأموال ، فاجتمعت له أسباب السعادة ، وفاز من الدنيا بنصيب لا يظفر به إلاّ قليل ، فاضت خزائنه بالأموال حتى ضاق الحفظه ذرعا بمفاتيحها وأثقلهم حملها وناءت العصبة أولوا القوة بها ، وكان يعيش عيشة البذخ والترف ولا يخرج على قومه إلاّ فى زينته ... استحوذ عليه المال فطغى وتكبر واغتر وتجبر ، وظن أن أحداً لن يقدر عليه ، فكان يفرض سلطانه على قومه ويسومهم البطش والعذاب .. غروراً واستئثاراً وكفراً بالنعمة واستكباراً فى الأرض .

قدمت له النصيحة بأن يوازن بين الدنيا والآخرة ويعطى حقوق الفقراء والمحتاجين ... ولكن قارون لم يأخذ بالنصيحة ، فقد أشرب قلبه بالمال ، وزاده الغنى علوا واستكبار وكان جافيا فى رده عليهم فقال : لست بحاجة إلى نصحكم ، فأنا أرجحكم عقلا ، وأرشدكم رأيا ، وما أوتيت هذا المال إلا لأنى به أجدر وأحق ... ورأى الذين يريدون الحياة الدنيا النعيم الذى فيه قارون فقالوا : " يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم وحاول سيدنا موسى عليه السلام إصلاحه وطلب منه أداء زكاة ماله ... ولكنه أبى واستكبر فقد طبع الله ﷻ على قلبه وران عليه الشح ، ولما يئس سيدنا موسى من صلاحه دعا الله ﷻ أن ينزل به عذابه ، ويخلص الناس من فتنته وإغوائه ، فاستجاب الله ﷻ لدعائه ، وخسف به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ﷻ وما كان من المنتصرين ، وابتلعته الأرض ، وضاعت فيها أمواله وقصوره ، فكان عبرة لقوم موسى والمستضعفين من أتباعه ، ولما رأى القوم ما حل بقارون رجعوا إلى أنفسهم نادمين على ما كان منهم وحمدوا الله ﷻ أنهم لم يكونوا مثله .

بسبب ذنوب قارون وهى بطر النعمة والتكبر والطغيان وحرمان الفقراء والمساكين من حقوقهم ، وعدم الاستجابة لدعوة موسى عليه السلام له ، كان هلاكه وماله ولم ينصره أحد ... وفى هذا عبرة لأمثال قارون فى هذا الزمان .

تعقيب :

من القصص السابقة التى وردت بكتاب الله ﷻ ، نستنبط العبر والدروس الكثيرة منها : ، أن المعاصى والذنوب والسيئات والخطايا والرذائل تمحق البركات من الأرزاق وتهلك الأمم والشعوب ، حتى ولو نفش أصحابها وطغوا وظلموا ولكن الله ﷻ يمهل ولا يهمل " **إن ربك لبالمرصاد** " (الفجر:١٤) ، وهذا هو الاستدراج الذى يجب الحذر منه ، ويحتاج إلى بيان نوضحه فيما يلى :

(٣-١٢) - استدراج أصحاب الذنوب بسعة الرزق وكثرة المال والأولاد والسلطان .

يتساءل كثير من الناس ، إذا كان من سنة الله ﷻ أن يبارك فى أرزاق المؤمنين لمتقين المتوكلين عليه ، والذين يسبحونه ويستغفرونه ويتوبون إلى .. وإذا كان من سنة الله التى لا تتبدل أن يعاقب المشركين الكافرين الظالمين المفسدين والمترفين الفاسقين لمتكبرين بمحق الأرزاق والهلاك والدمار ، كما رأينا فى أقوام الأنبياء والرسل وفى قصة قوم سبأ وأصحاب الجنة وصاحب الجنتين وقارون .

فما بالنا - مع الإيمان التام بهذه السنن .. نجد بعض أصحاب المعاصى والذنوب والسيئات قد أغدق الله عليهم بسعة الرزق وكثرة المال والأولاد والجاه والسلطان ... وفى نفس الوقت نجد بعض المؤمنين الصالحين فى شظف من العيش وقلة المال ؟ !! .. وهذا هو الواقع الذى يراه كثير من الناس ، فما تفسير ذلك ؟

ولهؤلاء نقول : هذه إرادة الله سبحانه وتعالى ومن تدبيره ، وله فى ذلك حكمة أوضحها الله ﷻ فى كتابه الكريم فى العديد من الآيات فى أكثر من مناسبة ، كما فصلها رسول الله ﷺ فى كثير من الأحاديث وبينها العلماء والفقهاء فى باب الاستدراج والإملاء كما نود أن نؤكد هنا على ما ذكرناه آنفاً أن الرزق ليس أموالاً وأولاداً وسلطاناً فقط ، بل كل ذلك وما شابهه من الرزق الظاهرى الذى قد يُرى عند كثير من الناس ، لكن هناك نوع آخر من الرزق وهو الرزق الباطنى المعنوى الذى لا يحس به إلا صاحبه من سلامة فى البدن وطمأنينة فى القلب وراحة فى البال ورضاء بما قسمه الله وما شابه ذلك ، وهذا النوع من الرزق لا تساويه أموال الدنيا ولا سلطانها ، بل قد ينفق أصحاب المال والسلطان كل ما يملكون ليحصلوا على سلامة البدن أو راحة البال ... لكن لا يحصلون على شىء .

ومن ذلك يستخلص المؤمن الدروس والعبر ليزداد إيمانا مع إيمانه ، ويقينا مع يقينه ، وثباتاً على ثباته ، وسوف نعرض معالم الاستدراج والإملاء كما وردت فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية الشريفة وعند العلماء والفقهاء بإيجاز حسب ما يتسع له المقام .

❁ الاستدراج والإملاء فى القرآن الكريم

من الفتن أن الله سبحانه وتعالى يبسط الرزق لبعض العصاة : والمذنبين ، كما فعل بقارون — كما سبق البيان — وهذا استدراج لهم ، كما أنه ابتلاء لعباده المؤمنين .

ولقد ورد بالقرآن الكريم العديد من الآيات المحكمات التى توضح الاستدراج والإملاء ، وتحذر المؤمنين من الفتنة نعرض منها ما يلى :

ـ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾ (الأعراف : ١٨٢-١٨٣) ، يقول صاحب الظلال فى تفسير هذه الآية : "إن المكذبين بآيات الله لا يتصورون أبداً أنه استدراج الله لهم من حيث لا يعلمون ، ولا يحسبون أنه إملاء الله لهم إلى حين ، فهم لا يؤمنون بأن كيد الله متين .. إنها سنة الله مع المكذبين يرخى لهم العنان ، ويملى لهم فى العصيان والطغيان استدراجاً لهم فى الهلكة وإمعاناً لهم فى الكيد والتدبير ، ومن الذى يكيد ؟ إنه الجبار ذو القوة المتين ، ولكنهم غافلون ، والعاقبة للمتقين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون"[1] .

---

[1] - سيد قطب " فى ظلال القرآن " ، جـ٢ ، صفحة ١٤٠٤ .

ـ ويؤكد الله سبحانه وتعالى أنه يملى للكافرين الظالمين المكذبين ولكن لهم عذاب شديد حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين** ﴾ (آل عمران :١٧٨) ، وقوله ﷻ : ﴿ **فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾ (القلم : ٤٤-٤٥) ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير** ﴾ (الحج: ٤٨)

ـ والله تعالى يأخذ الظالمين الكافرين بغتة مهما طال بهم الأمد ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك فى القرآن الكريم ، فقال الله ﷻ : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به ، فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ (الأنعام : ٤٤-٤٥) ، وقال الله ﷻ : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نبى إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ (الأعراف : ٩٤-٩٥) ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون** ﴾ (المؤمنون : ٥٥-٥٦) .

ففى الآية الأولى يوضح المولى سبحانه وتعالى ، أنه يفتح على الكافرين الظالمين أبواب الرزق من كل ما يختارون ، وهذا استدراج منه تعالى ، وإملاء لهم - عياذاً بالله ﷻ من مكره - حتى إذا فرحوا بما أوتوا من الأموال والأولاد والأرزاق أخذهم الله بغتة - أى غفلة - فإذا هم آيسون من كل خير.

وفى الآية الثانية يبتلى الله العباد بالبأساء والضراء لكى يرجعوا إليه ويدعوه بأن يكشف عنهم ، فإذا رجعوا لغيّهم مرة أخرى يأخذهم على غفلة وهم لا يشعرون .

وفى الآية الثالثة يؤكد المولى أن ما يمد الله به المكذبين من الكافرين من سعة فى الرزق وكثرة المال والبنين ليس خيرا لهم بل استدراج وهم لا يشعرون .

والعبرة المستخلصة من هذه الآيات عدم الفتنة بما وسع به الله على بعض العصاة المذنبين من مال وبنين وأرزاق لأن هذا من الاستدراج.

ـ ولقد حذر الله سبحانه وتعالى ، رسوله المؤمنين من الاغترار بالكافرين وطغيانهم وسلطانهم بالمال والجاه ، فهذا متاع قليل فى الدنيا ، والآخرة خير للأبرار ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى فى هذا المعنى : ﴿ **لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله ، وما عند الله خير للأبرار** ﴾ (آل عمران : ١٩٦-١٩٧) ، يقول صاحب الظلال : " **تقلب الذين كفروا فى البلاد مظهر من مظاهر النعمة والوجدان ، ومن مظاهر المكانة والسلطان ، وهو مظهر يحيك فى قلوب المؤمنين وهم يعانون الشظف والحرمان ، ويعانون الأذى والجهد ، ويعانون المطاردة أو الجهاد ، وكلها مشقات وأهوال ، بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون .. ! ويحيك منه شىء فى قلوب الجماهير الغافلة ، وهى ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء ، والباطل وحزبه فى منجاة ، بل فى مسلاة ، ويحيك منه شىء فى قلوب الضالين المبطلين أنفسهم ، فيزيدهم ضلالاً وبطراً ولجاجاً فى الشر والفساد .. وهذا متاع قليل ينتهى ويذهب أما المأوى الدائم الخالد فهو جهنم وبئس المهاد**[1]".

[1] - سيد قطب ، " فى ظلال القرآن " ، جـ١ ، ص ٥٤٩ .

تعقيب :

إن الواقع الذى نعايشه أبلغ تعبير عن كلام الأستاذ سيد قطب ، حيث نجد الأشراف الأطهار المجاهدين فى سبيل الله : إما خلف القضبان فى سجون الظالمين ، أو فى شظف العيش ، والفاسقين المرتشين المفسدين الظالمين فى حرية وبذخ وترف ، كما نرى الذين يعبدون الله محاصرون أو مطاردون أو معتقلون ، والذين يعبدون الشيطان وأعوانه يسيحون فى الأرض فساداً .

❁ الاستدراج والإملاء فى السنة النبوية الشريفة

لقد ورد عن رسول الله ﷺ بعض الأحاديث التى تفصل الاستدراج والإملاء للظالمين الكافرين المكذبين من هذه الأحاديث ما يلى :

- يقول الرسول ﷺ : " **إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج ، ثم تلا ﷺ قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾** (رواه الطبرانى وأحمد) .
- ويقول ﷺ : " **إذا رأيت الله يعطى العبد ما يحب من المال وصحة البدن والجاه وغير ذلك وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استدراج** " (رواه أحمد والطبرانى والبيهقى) .

- ولقد أشار ﷺ أن الله أحيانا يملى للظالم ولكن لا يفلته من العذاب الشديد ، فقال : " **إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته** ، ثم قرأ ﷺ قوله تبارك وتعالى : **﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾** (هود : ١٠٢) .

❁ الاستدراج والإملاء عند الفقهاء والعلماء

♦ قال عمر بن الخطاب ﷺ موصياً المؤمنين :
" احذروا النعمة حذركم المعصية وهى أخفها عندى "[1]

♦ قال ابن أبى حازم رحمه الله :
" كل نعمة لا تقرّب من الله سبحانه وتعالى فهى بلية "

♦ ورد فى الأثر عن أحد السلف :
" لا تغتروا بطول حلم الله عليكم ، واحذروا أسفه أى غضبه ، فإنه تعالى قال : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ (الزخرف : ٥٥) (رواه البخارى) "

♦ يقول الإمام الطبرى[2] :
" لا يحسبن هؤلاء الذين يذنبون من المسلمين ، فإن الله قادر على إهلاكهم ، وإنما يطول أعمارهم ليعملوا بالمعاصى ، لا لأنه خيرٌ لهم ، وإنما كان ذلك ليزدادوا عقوبة "

♦ يقول صاحب الظلال الشهيد سيد قطب :[3]
قد ينظر بعض الناس فيرى أمماً يقولون إنهم مسلمون مضيق عليهم فى الرزق ، ولا يجدون إلاّ الجديب والمحق !! ويرى أمما لا يؤمنون ولا يتقون مفتوحاً عليهم فى الرزق والقوة والنفوذ فيتساءل : وأين إذن هذه السنة التى لا تتخلف؟ ، يجيب

---

[1] - الشيخ عبد الرحمن بن محمد حافظ الأنصارى الشافعى، "طريق المتقين" ، تحقيق ونشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الإمارات العربية المتحدة ، جـ٢ ، ص ١٣٠ .

[2] - تفسير الطبرى ، كتاب الشعب ، صفحة ١٥٢٨ .

[3] - - سيد قطب ، " فى ظلال القرآن " ، جـ٣ ، ص ١٣٣٩ وما بعدها .

الشهيد سيد قطب على ذلك : ولكن هذا وذلك وَهم تُخيلـه ظواهـر الأحـوال ! إن أولئك الذين يقولون إنهم مسلمون لا مؤمنـون ولا متقـون ! إنـهم لا يخلصـون عبوديتهم لله ولا يحققون فى واقعهم شهادة أن لا إلـه إلا الله ! إنـهم يسـلمون رقابهم لعبيد منهم ، يتألهون عليهم ويشرعون لهم سـوء القوانيـن أو القيـم أو التقاليد وما أولئك بالمؤمنين ، فالمؤمن لا يدع عبداً من العبيد يتألـه عليـه ، ولا يجعل عبداً من العبيد ربه الذى يصرف حياته بشرعه وأمره ، ويوم كـان أسـلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقاً دانت لهم الدنيا وفاضت عليـهم بركـات من السماء والأرض وتحقق لهم وعد الله .

فأما أولئك المفتوح عليهم من الرزق ، فهذه هـى السـنة ، ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾، فهو الابتـلاء بالنعمة وهو أخطر من الابتلاء بالشدة ، وفرق بينه وبين البركات التـى يعدهـا الله من يؤمنون ويتقون ، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفـاع بـه ، وكان معه الصلاح والأمن والرضا والارتياح ، ولكن كم من أمـة غنيـة قويـة ولكنها تعيش فى شقوة مهددة فى أمنها مقطعة الأوصال بينها يسود الناس فيـها القلق وينتظرها الانحلال ، فهى قوة بلا أمن ، وهو متاع بلا رضا ، وهو وفـرة بلا صلاح ، وهو حاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نكد ، وهو الإبتـلاء الـذى يعقبـه النكال.

تعقيب

ونخلص مما سبق أن الاستدراج والإملاء من سنن الله ﷻ كذلك ابتلاء للمذنبيـن ليزدادوا إثما ، وموعظة وذكرى للمؤمنين لكى يصبروا ويصابروا ويرابطوا ويتقـوا الله ويفعلوا الخير لعلهم يفلحون .

(٣-١٣) - الخاتمة .

يتنافس على قلب المؤمن قوتان : قوى الخير وقوى الشر ، ولكل منها جنود ، وقد أفلح من زكى نفسه بقوى الخير " **الطاعات وعمل الصالحات**" ،وقد خاب من دس نفسه بقوى الشر "**المعاصى والذنوب والسيئات** " ، ويجب على المؤمن أن يعرف منشأ قوى الشر ، كما فعل حذيفة حيث روى عنه أنه قال : "**كان الصحابة يسألون الرسول عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه** " حتى ينجو بنفسه من آثار المعاصى والذنوب والسيئات . لأنها إذا رانت تكون سبباً فى محق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الأخوة ، فلا تجد أقل بركة فى كل حياته ممن يرتكب المعاصى والذنوب ولا يتوب ويستغفر ويعمل صالحا .

ولقد تناولنا فيما سبق بشىء من التفصيل أثر الذنوب فى محق الأرزاق وهلاك الأمم والشعوب ، وخلصنا إلى بعض المعالم (الأسس والمبادئ) رأيت أن أضعها فى صورة مركزة تصلح أن تكون دليلا للمؤمن لتجنب المعاصى والذنوب حتى يحفظ دينه ونفسه وعقله وعرضه وماله.

أولا : ينشأ الذنب عندما يقوم الإنسان بعمل نهى الله ورسوله عنه ، أو عندما يقصر أو يفرط فى أداء ما كلفه الله به ، لذلك يجب على المسلم أن يكون داعيا إلى الخير وآمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر مطبقا ذلك على نفسه أولا (**اصلح نفسك**)ثم (**ادع غيرك**) .

ثانيا :الذنوب كبيرها وصغيرها تزيل النعم الحاضرة ، وتقطع النعم الواصلة ، فحافظ على نعم الله بالطاعات وتجنب المعاصى والسيئات ، وفى ذلك يقول الشاعر:

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

ثالثا : يبدل الله السيئات حسنات لمن تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، ومن شروط ذلك التوبة النصوح والاستغفار ورد الحقوق لأصحابها أو الإبراء منها .

رابعا : من وصايا الرسول ﷺ عدم ارتكاب صغائر الذنوب فإنهن يأتين على الرجل فيهلكنه ، يهلكن عمره ورزقه وعلمه وعمله .

خامسا : من ممحقات الأرزاق ومهلكات الأمم والشعوب : الربا والزنا وأكل مال اليتيم والتطفيف و الخمر والميسر والفواحش والبغى والظلم وشهادة الزور والكذب وقطع الرحم والسرقة والرشوة والغلول ومنع الزكاة والمكوس ونقض العهود والتدليس والغرر والتكبر والتأله والتعظم ....ولقد ورد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة نماذج تبين أثرها فى محق البركة من كل شيء .

سادسا :فى قصص الأنبياء والرسل أنباء عن أثر المعاصى والذنوب فى محق الأرزاق وهلاك الشعوب ، وهذا جزاء الكافرين المشركين الظالمين المتكبرين المسرفين المترفين ...وصدق الله إذ يقول ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ (هود : ١١٧)

سابعا : لقد عاقب الله قوم نوح بالغرق ، وعاقب قوم هود بالريح العاتية ، وعاقب قوم صالح بالصاعقة ، وعاقب قوم لوط بالزلزال والأمطار ، وعاقب قوم شعيب بالحر الشديد والزلزال العنيف ، وعاقب فرعون وقومه بالغرق كل ذلك بسبب كفرهم وتألههم وعنادهم وطغيانهم وظلمهم وارتكابهم الفواحش ، وما ذلك من الظالمين ببعيد .

ثامنا : لقد ورد بالقرآن الكريم أربعة نماذج توضح سنة الله التى لا تتبدل وهى أن الله يمهل ولا يهمل مهما طال الأمد:

١- **قوم سبأ** :كانوا فى نعمة سابغة ، فكفروا وبالغوا فى بطر النعمة فأرسل الله عليهم سيل العرم ، فغرق الزرع وهلك الضرع ومزقوا كل ممزق .

٢- **أصحاب الجنة :** عندما تآمروا على حرمان المساكين من حقهم من البستان ، فأرسل الله عليها طائفا فأصبحت كالصريم .

٣- **صاحب الجنتين** : عنما تكبر وتعظم وكفر بالله ﷻ الذى خلقه وأنكر الآخرة ، أرسل الله على الجنتين حسبانا من السماء فأصبحت صعيدا زلقا .
٤- **قارون** : عندما بغى وتكبر وتعظم ، خسف الله به وبداره الأرض .

تاسعا : من سنة الله الاستدراج والإملاء ، حيث يبتلى أصحاب الذنوب والسيئات بسعة الرزق وكثرة الأولاد والأموال والسلطان لحين ، وليس هذا خيرا لهم بل ليزدادوا إثما ولهم عذاب أليم ، وصدق الله إذ يقول ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ (الأنعام : ٤٤-٤٥).

عاشرا : يجب أن نحذر فتنة الذين كفروا وطغوا ، الذين أمدهم الله بالمال والأولاد والسلطان فهذا متاع قليل فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم ، يقول الله : ﴿ **لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار** ﴾ (آل عمران :١٩٦-١٩٧) ، ويقول الرسول ﷺ:" **إذا رأيت الله يعطى العبد ما يحب من المال وصحة البدن والجاه ...وهو مقيم على المعاصى فإنما ذلك استدراج** " (رواه أحمد والطبرانى).

حادى عشر : يجب على المؤمن أن يعرف الحق فيتبعه ، وأن يعرف طريق الباطل ليجتنبه ، طريق الرحمن فيه الخير والبركات وطريق الشيطان فيه المعاصى والذنوب ، وكل ما يتصل بالشيطان ويقاربه محقت بركته .

وهذه الخلاصة تقودنا إلى وجوب معرفة الذنوب والأبواب المؤدية إليها حتى نتجنبها وهذا هو موضوع الفصل التالى إن شاء الله وقدر .